# أثر عربي ثمين

## « في مبحث الصوت ، وأسباب حدوث الحروف »

ممَّا يقولُهُ بعضُهم في الموازنة بين علم الشرق في الزمن الغابر ، وعلم الغرب في الوقت الحاضر ، أنَّ تقدُّمَ العلم الغربيّ مسيَّرٌ في الغالب بيد الصناعة ، وأن للغاية الاقتصادية تأثيراً على مبدئه . فهو مثلُ الحضارة الغربية عمليٌّ اكثر منهُ نظريّ ، والى الماديّ أقربُ منهُ الى الأدبيّ . أمَّا العلم الشرقيّ فانّ مدنية الشرق لم تنحُ بهِ نحواً خاصاً . ولذلك كان ينمو مع المدارك البشرية على قدرهـا . ولو أتيح له الاستمرار في طريقهِ حتى يُدرك عصرَ الطباعة فالبخارِ والكهرباء ، لكان لهُ في المستقبل شأنٌ غيرُ شأنهِ في الماضي

هذا ما يقولُهُ بعضهم في الموازنة بين العلمين ؛ ويقولون زيادة على ذلك إنَّ العلمَ النظريَّ لم يبلغْ في أوربا اليومَ المنزلة التي بلغها في آسيا من قبل . ولعلّ الخاطرَ الأوّل الذي خطر لي عند اطّلاعي على رسالةِ الرئيس أبي عليّ الحسين بن سينا في أسباب حدوث الصوت والحروف كان من هذا القبيل ، فقد قلتُ في نفسي ساعتئذٍ : « لماذا تفيضُ الفلسفةُ الطبيعية الحديثة في بيان أشكالِ النور وألوانهِ وتحلُّله وتركّبهِ عند مرورهِ بالمنشور البلّوري ، مثلاً ، ولا تفيض هي أو الفنون المتفرّعة عنها في بيان أشكال الصوتِ وأوصافهِ عند مرورهِ بالحنجرة وعبث اللسان بهِ في أطراف الفم ، كما فعل ابن سينا قبل تسعمائة سنة في الكتاب الذي هو موضوعُ بحثنا الآن » ؟

نبّهني الى كتاب ابن سينا عالمٌ جليلٌ محقّق ، فرأيتهُ من أنفس مدّخرات خزانة العالِم الفاضلِ أحمد تيمور بك ، ولكنهُ ، وا أسفاه ! قد تناولتهُ يدُ التحريف والتصحيف حتى لا يكاد الانسانُ يثقُ ببقاء جملةٍ منهُ على أصلها . فزادني هذا الأمرُ شوقاً الى نشره وإحيائهِ تعريفاً للخلفِ بمآثر السلَف ، وإعلاماً بما للعرب

من فضيلة السبق في تحقيق أسباب حدوث الصوت ، وخدمةً للغة بلفت الانظار الى مبحثٍ آخر من مباحثها ، وهو أسباب حدوث الحروف وكيفية حدوثها

واصلنا البحث عن نسخة ثانية من هذا الأثر العربيّ الثمين ، واستعنّا بكثير من الاخوان ، الى أن عثر صديقي المسيو لويس ماسينيون أستاذ تاريخ مذاهب الفلسفة العربية في الجامعة المصرية على اسم هذا الكتاب في فهرس المكتبة البريطانية في لوندرة ثمَّ أراد أن يكون عملهُ أكملَ فكتب الى من أخذ لنا نسخةً فطوغرافية منهُ ؛ فاذا هي لا تقلُّ عن النسخة الأولى تحريفاً ، إلا أنَّ معارضة النسختين ومراجعة الكتب التي نقل أصحابها عن رسالة الحروف لابن سينا مثل كتابي المواقف والمقاصد ، وكتاب التفسير الكبير للفخر الرازي ، ومبحث تشريح الحنجرة واللسان من قانون ابن سينا ، قد صححت لنا الأغلاط التي يظهر أنها هي التي حالت دون عناية المستشرقين بنشر الكتاب : فظهرت لنا من كليهما نسخة تغلب الصحة عليها ، ويطمئنُّ القلب اليها

* * *

الرسالة اسمها « أسباب حدوث الحروف » وهي في ستة فصول هذا بيانها :

الفصل الأول — في سبب حدوث الصوت ،

الفصل الثاني — في سبب حدوث الحروف ،

الفصل الثالث — في تشريح الحنجرة واللسان ،

الفصل الرابع — في الأسباب الجزئية لحرفٍ حرفٍ من حروف العرب ،

الفصل الخامس — في الحروف الشبيهة بهذه الحروف وليست في لغة العرب ،

الفصل السادس — في أن هذه الحروف من أي الحركات غير النطقية قد تُسمع

* * *

يقول ابن سينا في سبب حدوث الصوت :

أظنُّ أنَّ الصوتَ سببهُ القريب تموُّجُ الهواء دفعة وبقوة وبسرعة من أيّ

سبب كان . ثم ذلك الموج يتأدّى الى الهواء الراكد في الصماخ فيموّجه فتحسّ به العصبة المفروشة في سطحه

والذي يُشترط فيهِ من أمر القرع عساه أن لا يكون سبباً كليًّا للصوت ، بل كأنهُ سببٌ اكثريّ ؛ ثم إن كان سبباً كليًّا فهو سببٌ بعيدٌ ، ليس السببَ الملاحق لوجود الصوت ، والدليل على أن القرع ليس سبباً كليًّا للصوت أن الصوت قد يحدث أيضاً عن مقابل القرع وهو القلع

فاذن العلة القريبة — كما أظن — هو التموّج

فالتموّج نفسهُ — كما يقول ابن سينا — هو الذي يفعل الصوت

وأما حال التموّج من جهة الهيئات التي تستفيدها من المخارج والمحابس في مسلكه فتفعل الحروف

وتعريف الحرف في كتاب ابن سينا « هو هيئة للصوت عارضة لهُ يتميز بها عن صوت آخر مثله في الحدّة والثقل تميزاً في المسموع »

والحروف بعضها — من حيث الصوت — مفردة ؛ وبعضها مركبة . فالمفردة تحدث عن حبسات تامة للصوت — أو للهواء الفاعل للصوت — تتبعها اطلاقات دفعة ، والمركبة تحدث عن حبسات غير تامة لكن تتبعها إطلاقات

والمفردة تشترك في أن وجودها وحدوثها في الآن الفاصل بين زمان الحبس وزمان الاطلاق ، وذلك أن زمان الحبس التام لا يمكن أن يحس فيه بصوتٍ حادث عن الهواء وهو مستكن بالحبس ، وزمان الاطلاق لا يحس فيه بشيءٍ من هذه الحروف لأنها لا تمتد البتة انما هي مع ازالة الحبس فقط

وأما الحروف الأخرى فانها تمتد زماناً ، وتفنى مع زمان الاطلاق التام ، وانما تمتد في الزمان الذي لا يجتمع فيه الحبس مع الاطلاق

* * *

ويقول ابن سينا في تشريح الحنجرة انها مركبة من غضاريف ثلاثة :

١ — الغضروف الدرقي ، وهو موضوع الى قدّام وينالهُ الحبس في المهازيل

عند أعلى العنق تحت الذقن . وشكله شكل القصعة ، حدبته الى خارج والى قدام وتقعيره الى الداخل والى خلف ،

٢ — عديم الاسم ، وهو خلف الدرقي مقابل سطحه ،

٣ — الغضروف الطهرجاري ، وهو كقصعة مكبوبة على الغضروفين السابقين

ويقول في تشريح اللسان انه مركب من ثماني عضل : اثنتان تأتيان من الزوائد السهمية التي عند الأذن يمنةً ويسرة ، وتتصلان بجانبي اللسان ، فاذا تشنجتا عرضتاه . واثنتان تأتيان من أعالي العظم اللامي وتنفذان وسط اللسان ، فاذا تشنجتا جذبتا جملة اللسان الى قدام فجعلها جزء منه وامتد وطال . واثنتان من العضلين السالفين من أضلاع هذا العظم تنفذان بين المعرضين والمطولين ويحدث عنهما تورييب اللسان . واثنتان موضوعتان تحت هاتين واذا تشنجتا بطحتا اللسان

* * *

هذا ملخص الفصول الثلاثة الأولى ؛ وكلها مقدمات لبيان كيفية حدوث كل حرف من الحروف العربية والحروف الأخرى التي توجد فيما عرفه ابن سينا من لغات آسيا المنتشرة يومئذٍ في فارس وما يليها

وهو يقول مثلاً في بيان كيفية لفظ حرف الخاء انهُ يحدث من ضغط الهواء الى الحدّ المشترك بين اللهاة والحنك ضغطاً قويًّا مع اطلاق ، تهتزّ فيما بين ذلك رطوبات يعنف عليها التحريك الى قدّام ، فكلما كادت تحبس الهواء زوحمت ، وقسرت الى خارج في ذلك الموضع بقوّةٍ

والقاف يحدث حيث تحدث الخاء ولكن بحبس تامّ . وأما الهواء فمقداره ومواضعه فذلك بعينه

ويقول في كيفية لفظ الجيم انهُ يحدث من حبس تام بطرف اللسان وبتقريب للجزء المقدّم من اللسان من سطح الحنك المختلف الأجزاء في التوء والانخفاض مع سَعَةٍ من ذات اليمين واليسار واعداد الرطوبة ، حتى اذا أطاق نفذ الهواء في ذلك المضيق نفوذاً يصفر لضيق المسلك ، إلا انهُ يتشذب لاستعراضهِ ويتم صفيرهُ خالُ

الأسنان وتنقص من صفيره وترده الى الفرقعة الرطوبةُ المندفعة فيما بين ذلك متفقعة ، ثم تتفقأ ، الا أنها لا يمتد بها التفقُّع الى بعيد ولا تتسع ، بل تفوقها في المكان الذي يطلق فيه الحبس

والشين تحدث كما يحدث الجيم بعينه ولكن بلا حبس البتة ، فكأنما الشين جيم لم يحبس وكأن الجيم شين ابتدأت بحبس ثم أطلقت

ويقول في كيفية لفظ الصاد ان الذي يفعله هو حبس غير تامّ أضيق من حبس السين وأيبس وأكثر أجزاء حابس طولاً الى داخل مخرج السين والى خارجه حتى يطبق اللسان أو يكاد يطبق على ثلثي السطح المفروش تحت الحنك والمنخر ويتسرَّب الهواء عن ذلك المضيق بعد حصر شيء فيه من وراء ويخرج من خلل الأسنان

وأما السين فتحدث عن مثل حدوث الصاد الاَّ أن الحابس من اللسان فيه أقلّ طولاً وعرضاً فكأنها تحبس العضلات التي في طرف اللسان ، لا بكليتهـا بل بأطرافهـا

ويقول في وصف الفاء التي تكاد تشبه الباء ( ف — V ) انها تقع في لغة الفرس عند قولهم ( فرندي ) [1] تفارق الباء لانهُ ليس فيها حبس تام . وتفارق الفاء بأن تضييق مخرج الصوت من الشفة فيها أكثر وضغط الهواء أشد حتى يكاد يحدث بسببه في السطح الذي في باطن الشفة اهتزاز

ومن ذلك البـاء المشدّدة ( بِ — P ) الواقعة في لغة الفرس عند قولهم ( پيروزي ) [2] وتحدث بشد قوي للشفتين عنـد الحبس وقلع بعنف وضغط الهواء بعنف

* * *

وأما الفصل الأخير فهو من أغرب المباحث وألطفها وأكثرها حاجة الى الدرس

---

(١) فارسية بمعنى جوهر السيف وقد عربت . والفرس يلفظونها الآن « پرند » . وقد زال من لغة الفرس حرف ( ڤ ) بعد ابن سينا ولم يبق الاَّ في لغة قبائل الكرد

(٢) بمعنى الانتصار والظفر

والبحث والتدقيق لأن ابن سينا حاول أن يأتي فيهـا لكل واحد من الحروف العربية بما يشبهه من الحركات الغير النطقية ، مثل صدور صوت يشبه حرف القاف عن شق الأجسام وقلعها . والغين عن غليان الرطوبة في أجزاء كبار تندفع الى جهة واحدة . والكاف عن قرع كل جسم صلب كبير على بسيط آخر صلب مثله . والشين عن نشيش الرطوبات وعن نفوذها في خلل أجسام يابسة نفوذاً بقوة. والطاء عن تصفيق اليدين بحيث لا تنطبق الراحتان بل ينحصر هنالك هواء له دويٌّ . والتاء عن قرع الكف بأصبع قرعاً بقوة . والفاء عن حفيف الأشجار

* * *

و بعد فان الذي يطالع الرسالة كلها يظهر له أن ابن سينا كان جديراً بأن يقول في آخرها : « اني قد بلغت الكفاية ، وعبرّت عن المقدار الذي تبلغه مني المعرفة ». وقد أهداها الى الاستاذ أبي منصور محمد بن علي بن عمر الخيّام وهو الذي اقترح عليه تصنيفها ، ولا يعقل أن يكون أبو منصور هذا حفيد الخيام الخراساني صاحب الرباعيات لأن الخراساني كان معاصراً للرئيس ابن سينا وتلميذاً له

وعلى كل حال فهذا الكتـاب الصغير نموذج للعلم الشرقي الذي لو أتيح له الاستمرار في طريقه حتى يدرك عصر الطباعة فالبخار والكهرباء لكان له شأن غير شأنه

( القاهرة ) محب الدين الخطيب

* لا يتعادل الحبُّ بين اثنين ؛ بل يكون قويًّا في احدهما ، وهذا الذي يتألَّم ، وضعيفاً في الآخر ، وهو الذي يضجر

* إربأ بنفسكَ أن تكون الحبيبَ الذي يلي حبيباً جار أو ظلم ؛ لان الثأر يُؤخذ منكَ وأنت بريء من الذنب